وإتقان بنية الشعر ، وإحكام عقد القافية ، وتلاحم الكلام بعضه ببعض"[1] ويمثل ابن رشيق لهذا النوع من الصنعة المنتظمة بقول الحطيئة[2]:

فلا وأبيك ما ظلمت قريع *** بأن بينوا المكارم حيث شاؤوا .

ولا وأبيك ما ظلمت قريع *** ولا برموا بذلك ولا أساؤوا.

بعثرة حارهم أن ينعشوها *** فيغبر بعدهم نعم وشاء.

فبيني مجدها وبقيم فيها *** ويمشي إن أريد به المشاء.

فإن الجار مثل الضيف يغدو *** لوجهته وإن طال الثواء.

فالصنعة في هذا النص ليس عيباً ،بل تعد ضرباً من ضروب شعرية النص الدالة على جودته ؛ فالأبيات تبدو محكمة من حيث النظم والقافية ، كما أن تكرار الشاعر لصدر البيت الأول :"فلا وأبيك ما ظلمت قريع "، لم يضعف أسلوب القصيدة وإنما أكد المعنى ، وأكسبه عذوبة وسلاسة، ويمثل ابن رشيق لهذا النوع من الصنعة – أيضاً – بقول أبي ذويب الهذلي ، يصف حمر والوحش والصائد:

فوردن والعيون مقعد رابي الضـ *** ـرباء خلف النجم لا يتتلع.

فشرعن في حجرات عذب بارد*** حصب البطاح تغيب فيه الأكراع .

فشربن ثم سمعن حسا دونه *** شرف الحجاب وريب قرع يقرع .

فنكرنه فنفرن فامترست به *** هو جاء هادية وهاد جر شع .

يعلق ابن رشيق على هذه الأبيات بقوله :" فأنت ترى هذا النسق بالغاء، كيف اطرد له ، ولم ينحل عقده، ولا أحتل بناؤه ، ولولا ثقافة الشاعر ، ومراعاته إياه ، لما تمكن له هذا التمكن"[3].

وإذا عدنا إلى النص نجد أن الشاعر أعتمد على التدوير الذي جعل الإيقاع متصلاً إلى نهايته ، علاوة عل توزيع المقاطع بما تحمله من حمولة معنوية توجه مقصدية النص ، يضاف إلى ذلك حركة الأفعال التي أستهل بها

---

[1]- المصدر نفسه : ص259.

[2]- العقيدة في ديوان الحطيئة : ص/102.

[3]- العمدة في محاسن الشعر وآدابه : ج1 /ص:259-260.

الشاعر كل بيت ؛ ذلك أن الشاعر صاغ صدر كل بيت صياغة جمالية ساهمت في تركيز معناه في الأذهان . فأفعال : " فوردن ، فشرعن ، فشربن ، سمعن . كلها تصور الحركة السريعة التي تلي ثان تصل إلى أقصاها في توالي الأفعال الباقية .

ومهما يكن من أمر ؛ فقد أستطرف ابن رشيق أبيات ذويب الهذلي، وقال : ان العرب استحسنت الصنعة التي تتخلل هذه الأبيات ، لأنها تدل على "جودة شعر الرجل ، وصدق حسبه ، وصفاء خاطره"[1]

وأما الضرب الثاني من الكلام المصنوع ، فيتمثل عند ابن رشيق في الإكثار من المحسنات البديعية ، وقد وازن ابن رشيق بين البحتري ،وأبي تمام وانتهى إلى أنهما من أهل الصنعة ؛ فالبحتري كان يريد الصنعة دونما كلفة ولا أجهاد نفس ، بينما كان أبو تمام "يذهب إلى سهولة اللفظ ، ما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً ، ويأتي الأشياء من بعيد، ويطلبها بكلفة، ويأخذها بقوة "[2].

لقد وازن ابن رشيق بين البحتري ،وأبي تمام وخلص إلى أنهما من أهل الصنعة ؛ فالأول كان يطلب الصنعة دونما كلفة ولا مشقة ، والثاني ينطبق على مذهب أبي تمام فأنه لا ينطبق تمام الانطباق على مذهب البحتري ، لأن أكثر النقاد يجمعون على أن البحتري هو إمام أهل الطبع من المحدثين ، وحامل لواء الشعر المطبوع بيدا أن هذا الرأي لا يعني أننا ننفي الصنعة عن البحتري نفيا تاما ؛ فطلبه لألوان البديع من جناس وطباق، واعتكافه على شعره بالتجويد والتنقيح والتهذيب ضربان من تعاطي الصنعة في الشعر ،ولكنها تبقى صنعة خفيفة يغلب عليها الطبع ،فتتوارى في ظلاله" [3].

ثم ينتقل أبن رشيق -بعد ذلك- إلى الحديث عن عبد الله بن المعز الذي امتاز بصنعته " خفيفة لطيفة لا تكاد تظهر في بعض المواضيع إلا للبصير بدقائق الشعر "[4] .

يشير أبن رشيق إلى أن قدرة الشاعر المبدع تكمن في حسن استغلال الجودة البلاغية ، وإحكام الصنعة ، لان الصنعة يمكن أن تملأ النص الشعري شعرية مثلما يمكن أن تسلب هذه الصنعة عنه"[5] وقد أعجب أبن رشيق بمذهب أبي تمام ، ومسلم بن الوليد ، ورأى فيهما مثالا يقتدى به لما " فيهما من الفضيلة لمبتغيها ، ولأنهما طرفا

---

[1]- العمدة في محاسن الشعر وآدابه : ج1 ص : 261.

[2]- محمود الربداوي : الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت : د.ت ص/390-391.

[3]- المصدر نفسه ،ص/261.

[4]- العمدة في محاسن الشعر وآدابه : ج1 ص : 262.

[5]- حمادي المسعودي : أدبية النص الشعري من خلال العمدة لأبن رشيق ،ص/31

وعلى الرغم من انتصاره للشعراء المطبوعين وولعه بشعرهم ، لم يخف ابن شرف إعجابه بطريقة الشعراء أصحاب الصنعة ؛ فهو حين تحدث عن مسلم بن الوليد الذي رأى أن كلامه "مرصع ونظامه مصنع ، وغزله مستعذب ومستغرب ، وجملة شعره صحيحة الأصول، مصنعة الفصول قليلة الفضول".[1]

وأما أبو تمام "فمتكلف إلا أنه يصيب ، ومتعب لكن له من الراحة نصيب ،وشغله المطابقة والتجنيس(..) جزل المعاني ، مرصوص المباني"[2]وهكذا أوزان ابن شرف بين الشعراء المطبوعين ، وبين الشعراء أصحاب الصنعة ، فالمطبوع عمل يقوم على العفوية والتلقائية ، ويقوم على فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعاني وإبرازه وإتقان جودة الشعر ، ليما يؤدي وظيفته المتمثلة في التوضيح والإبانة، لتسهيل عملية التلقي ، واما المصنوع ؛ فيمثل في الإكثار من المحسنات البديعية، وهو ضرب يمثله مسلم ابن الوليد ، وابو تمتم وعلى الرغم من ان شرف حاول أن يوفق بين المطبوع والمصنوع، إلا أنه مع ذلك لم يخفي إنتصاره للمطبوع ،وإعجابه بشعرائه ، وخاصة البحتري الذي نهج طرقة الأوائل ، وحافظ على عمود الشعر ، ويظهر هذا جلياً في نقده لافتتاحيات شعر أبي تمام ، ويقول:"ومما يعاب من شعر الافتتاحيات الثقيلة ، مثل قول حبيب [يعني أبي تمام] أول قصيدة :

هن عوادي يوسف وصواحبه *** فعزما فقدما أدرك السؤال طالبه.

يشير ابن شرف إلى ان أبي تمام ولع بالصنعة ؛ فوقع في مثل هذه الإبتداءات لكن ابن شرف لم يوضح رأيه الصريح في قضية الطبع والصنعة ؛ فقد حاول التوفيق بين المطبوع والمصنوع.وكنا نود لو أفرد باباً خاصاً لهذه القضية الهامة التي شغلت كثيراً من النقاد في المشرق والمغرب على حد سواء .

أما حازم القرطجني ، فقد درس قضية الطبع والصنعة ، فتحدث عن النظم ، ورأى أنه يرتبط بعملية الإبداع الشعري ، يقول "النظم صناعة آلتها الطبع ، والطبع هو إستكمال للنفس في فهم أسرار الكلام ، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي من شأن الكلام بحسبه عملاً" وكان النقود في مقاصد النظم وأغراضه وحسن التصرف في مذاهبه وألحانه إنما يكون بقوة فكرية واهتداءات خاطرية تتفاوت فيها أفكار الشعراء"[3] فالنظم عند حازم- آلته الطبع؛ وهو يشمل العمل الادبي لكل منذ بدء تصور المبدع له ، واستحضار معانيه ، وإنتقاء عبارته ، ووصف ألفاظه إلى إختيار ألفاظه وقوافيه.

---

[1]- المصدر نفسه ،ص/ 142-143.

[2]- المصدر نفسه ،ص/ 135-136.

[3]- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، الطبعة الأولى ، المطبعة الرسمية ، تونس : 1966م.